التنوع الفكري ووحدة الشكل الفني في شعر التفعيلة
مرحلة الريادة، نموذجا

الدكتور عزيز لعكايشي
جامعة الإخوة منتوري

مقدمة:

تشير هذه الدراسة، إلى أن التنوع الفكري والفني في الشعر الجديد، قد أدى إلى ترقية المخيلة العربية المعاصرة، وانفتاحها على مختلف التيارات الشعرية الحداثية، وبذلك تحقق لها التوافق الشعري في شكل تحالف فني ظل يعمل باستمرار على ترقية القصيدة في إطار الوحدة والتنوع تعبيرا وبناء.

لقد كان من نتائج الإنسداد الفني الذي وصل إليه الحلم الوجداني الرومانسي في الشعر العربي الحديث، أن تأزمت المخيلة الفنية العربية المعاصرة، تحت ضربات الحداثة[1] وأصبح المتخيل العربي في صورته الغنائية الذاتية "عنصر إزعاج أكثر مما هو عامل إغناء للممارسة العقلية"[2].

ولذلك ارتبط الموقف الشعري الجديد في نشوئه وتطوره، بتطور العقلية الثقافية والفنية التي دخلت، في أعوام الخمسينيات ميدان الممارسة النضالية الفعلية بكل أبعادها السياسية والفكرية والفنية، وبهذا المعنى أصبح للمتخيل وظيفة أساسية في الحياة، وصار

1- أدونيس، الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، 3- صدمة الحداثة، ط 4 بيروت: دار العودة، 1983 ص. 253.

2-محمد نور الدين أفاية، المتخيل والتقاصل، مفارقات العرب والغرب، ط1، بيروت، دار المنتخب العربي، 1991، ص 34.

تعبيرا عن علاقة الوعي بالموضوع، ومن خلال هذه العلاقة، يحدث الإدراك ويتحقق الفهم وينشأ التخييل كطريقة في العرض والصياغة كذلك.

وأن صورة القصيدة القادرة على التغيير، هي تلك التي تمر عبر ثورة الخارج أي تهدم البنية الشكلية للقصيدة، واعتماد التفعيلة والأشطر الشعرية المتغيرة أساسا إيقاعيا جديدا، ولكنه الأساس الفني والبنائي الذي ينمو ويتطور من الداخل دون اللجوء إلى هدم الجسور بين القديم والجديد وبالتالي الوصول بالتجربة الشعرية الحديثة إلي مرحلة التوازن بين ما هو فني إبداعي، وبين ما هو اجتماعي وواقعي.

وقد كان من نتائج هذا الواقع الشعري الجديد، أن انفجر الشكل الرومانسي وعلى أنقاضه قامت ثورة التفعيلة والصورة، ثورة القصيدة الحرة ذات الشكل التعبيري والفني المرن، بحيث احتضن كل التيارات الشعرية التي برزت في البيئات الأدبية العربية، كما احتضنت الفكرة الاشتراكية كل التوجهات الوطنية والقومية والإيديولوجية، وبصيغها الفكرية المتعددة من الصيغة اليسارية إلى الصيغ القومية الاشتراكية، إلى الاشتراكية العلمية،[1] وبذلك اتسعت مساحة النضال الاجتماعي، وازدادت التجربة الاجتماعية ثراء وتوسعا كذلك واتسعت معها صيغ التعبير الجديد، وتحقق التوافق الشعري بين مختلف تلك التيارات، في شكل تحالف أو ائتلاف فكري ظل يعمل باستمرار على تغذية القصيدة الحرة فكرا وتعبيرا وبناء.

إن هذا التوافق الشعري والفكري الذي طال المخيلة الفنية العربية بوجه خاص، والمخيلة الفنية العراقية بوجه أخص، ما كان له أن يقوى وينضج , لولا تلك المفاهيم القومية والفكرية الجديدة التي بدأت تتبلور في صيغ فكرية تعبر عن ثقافة حديثة متميزة , أثرت العلاقة بين الفكر القومي والوعي الشعري، وبتطور هذه الثقافة الجديدة واغتنائها

---

1 سليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي، ط3، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية 1984، ص. 289.

بالوعي الاجتماعي، ازدادت تلك العلاقة قوة وعمقا، واتجه النضال الوطني العربي بكل أبعاده بعد الحرب العالمية الثانية، نحو إنجاز المشروع السياسي الشامل بأبعاده الاجتماعية والاقتصادية والأدبية كذلك لمواجهة الاختيارات الحاسمة، ومواكبة حركة الحداثة والتطور العالمي الذي يفرضه الواقع الدولي الجديد.

وقد كان من أبرز ما يحمله هذا التطور من عناصر الشعور، ضرورة الانطلاق من رؤية شمولية محددة وواضحة، تتجاوز ذلك التداخل والخلط في المشاريع السياسية والفكرية رغم أن صياغة هذا التصور لم يكن أمرا بسيطا، في ظل مناخ يتميز بالخلط والتداخل والتعدد في الاتجاهات الوطنية والقومية، وهي فترة تاريخية سادها الاختلاف والتناقض والصراع غالبا، والتعايش أحيانا، بين دعاة التجديد في إطار القديم، وبين التجديد في إطار الثورة على القديم.

ولا شك أن هذا الواقع كان ه تأثير على الحياة الأدبية والثقافية، ذلك لأن الوعي الوطني والقومي، رغم أنه كان حاضرا باستمرار في العقلية العربية الجمعية وفي جميع المراحل الأدبية والتاريخية للعصر الأدبي الحديث، إلا أنه لم يكن يعني تصورا واحدا، أو رؤية محددة ودقيقة للراهن وللمستقبل كذلك، وإنما كان يتضمن شيئا واحدا شكل الحد الأدبي لذلك التوافق الفكري والإبداعي، ويتمثل في القيام بمهمة الإنجاز السياسي أولا، أي الخروج من التبعية الأجنبية وتحقيق الاستقلال كشرط جوهري وأساسي في كل عمل نهضوي حداثي، وتؤجل المسائل الأخرى إلى إشعار آخر، ونعني بذلك الثورة التي تحولت إلى نظام أو دولة ذات سيادة.

أما الثورة التي تتحول إلى نهضة حضارية شاملة بأبعادها الاجتماعية والإنسانية، ومن خلالها يكتسب الجديد نوعا من الشرعية، فقد تمكنت نسبيا من إقامة الجسور بيننا وبين العالم المعاصر، عبر قنوات الاتصال والانفتاح الثقافي.

وبهذه الطريقة صارت الصورة هي هذا الجديد المنبعث من القديم على نحو جديد، أو من الجديد القادم إلينا من الغرب، وتشكلت الصورة الحداثية للقصيدة الجديدة حيث استحضرت الماضي في قلب الحاضر بكثافة وعمق، وانفتحت على المستقبل الحداثي بحماس كبير.

إن هذا الجديد الذي كان يعني في الذاكرة الفنية الجمعية آنذاك الثورة وقد أثمرت حداثية كلاسيكية عند نازك الملائكة غالبا وبدر شاكر السياب أحيانا، وحداثية منفتحة ناضجة خاصة عند عبد الوهاب البياتي، وبذلك تحررت مساحة واسعة من الوجدان الشعري العربي الحديث بناء وتعبيرا "من الرواسب الفنية التقليدية".[1]

ولذلك اتخذ النضال الوطني والقومي في بدايته، صبغة نضالية ثورية، أكثر منه رؤية فكرية واجتماعية بكل أبعادها الاجتماعية والاقتصادية، وربما طبيعة وجدانية رومانسية، قد تكون من بين الموارد الوجدانية التي ظلت تربض في أعماق المخيلة الفنية العربية عامة والعراقية القلقة على وجه الخصوص، "بعد أن أخذ الشعور القومي بالتعاظم"[2] وتعمل على تغذية النزعة الذاتية الغنائية في القصيدة الحرة ولذلك سنلاحظ حضورا متميزا لهذه النزعة الغنائية التعبيرية عند رواد الشعر الحر والجديد وهذا الحضور الغنائي اللافت للنظر كان قويا في المراحل الشعرية الأولى لهذه التجربة الشعرية الحداثية.

ولكن هذا النضال السياسي القومي، ازداد اتساعه وعمقه في المخيلة الفنية العربية، حينما اتضح أن المشكلات الجوهرية التي يعاني منها المجتمع العربي عامة، والمجتمع العراقي خاصة، هي مشكلات ذات أبعاد اجتماعية اقتصادية وثقافية وأن الأسئلة الحداثية الحقيقية، هي تلك الأسئلة المرتبطة بالواقع، بالمجتمع بكل فئاته وبقضايا التخلف، والفقر

1- غالي شكري، سوسيولوجيا النقد العربي الحديث، ط1، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1981، ص. 164.

2- عمر الدقاق، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، بيروت , دار الشرق العربي، ص. 69.

والتفاوت الطبقي، وهي الأسئلة الصحيحة التي تعمل على تشخيص الواقع بكل موضوعية وشمولية، وترتبط بالوعي الاجتماعي في أبعاده المختلفة.

إن هذه الأسئلة الحداثية الجديدة، لا تعني أنها سقطت من حسابات النضال القومي الآخر، وأنها لم تكن ذات ملامح اجتماعية، بل إن الوعي الاجتماعي، نشأ مع مختلف أنماط الوعي الأخرى، وظل على علاقة وثيقة بها، تغذيه وتحتضنه وأحيانا تطغى عليه ولكنه بقي ينمو ويتعمق ويتسع في صيغ فكرية وفنية جديدة حتى اتضحت معالمه ورؤاه بشكل دقيق بعد الحرب العالمية الثانية، وهو الوعي الذي كان وراء صياغة تلك الأسئلة الحداثية المعاصرة التي طرحتها قصيدة الشعر الحر[1] في الخمسينيات، وعمقتها التجارب الشعرية اللاحقة.

ولأن الفكر العربي كان مهتما في أول الأمر بالمشكلة السياسية أي بمشروع الاستقلال, كان الاهتمام منصبا على تحقيق هذا الهدف السياسي، دون تحديد دقيق لهذا المستقبل السياسي فيما بعد، وسواء تحقق هذا الهدف في شكل تصور قومي شامل أو في شكل تصور إقليمي وطني[2] فإن الاستقلال سيظل هو المحتوى الأساسي والمركزي في تشكيل العقلية الثقافية والفنية.

هذه هي الصورة الفكرية التي كانت حاضرة لدى الشاعر والسياسي والناقد، والمثقف العربي بوجه عام، ورغم أن هناك من تفطن إلى ربط النضال السياسي بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية، إلا أنها ظلت مجرد نزعة عقلية نظرية و لم تكن موقفا ثوريا، لا في السياسة ولا في الإبداع مما عجل بتشكيل عقلية سياسية اجتماعية عملت على تغذية وتشكيل المخيلة الفنية الواقعية الحداثية عند رواد الشعر الحر على وجه الخصوص.

1- نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، بيروت، دار الأدب، 1962 ص. 25

2- محمد الكتاني، الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، ج 1، ط 1، الدار البيضاء: دار الثقافة، 1982، ص. 148.

وكما تحول النضال الوطني والقومي في مختلف الأقطار العربية، من نضال ضد الهيمنة، الأجنبية الاستعمارية، إلى نضال ضد الهيمنة الإقطاعية والقوى المتحالفة معها، حينما ارتبط هذا النضال بالوعي الاشتراكي ولاسيما بعد نكبة فلسطين عام 1948 وقيام ثورة 1952 في مصر، قامت النزعة الواقعية في الأدب كذلك.

لقد كانت سنة 1948، سنة حاسمة في التاريخ العربي الحديث، فهي لم تشهد نكبة فلسطين فقط، ولكنها شهدت بداية انهيار المجتمع التقليدي بأنظمته السياسية أمام تصاعد الوعي الوطني التحرري بأبعاده الثورية الجديدة في معظم البيئات العربية ومنها البيئة العراقية وفي هذه الحقبة شهدت كذلك الساحة العربية بداية الشعر الحر وانكسار وتراجع الأشكال التقليدية، هيأت لها عوامل متعددة منها:

- انهيار النماذج التقليدية في الثقافة وفي السياسة والفكر والإبداع أيضا.
- اتساع رقعة الشراكة والانفتاح على الثقافة الغربية.
- تسرب الفكر الاشتراكي عامة إلى الوطن العربي وإذكاء مشاعر النضال والكفاح من أجل التحرر والتجديد[1].

وقد كانت معظم الأقطار العربية، تعيش مدا يساريا بعد الحرب العالمية الثانية باستثناء الجزائر، وتموج بكثير من الأفكار الاشتراكية الثورية الرافضة لكل التقاليد السابقة، وبذلك انفتح المجتمع العربي على العالم الخارجي[2] وهبت عليه تيارات الفكر المعاصر بشكل واسع فانتعشت الصحافة ونشطت حركة الترجمة والطباعة، فتأثر الخيال

1- أنيس الخوري المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ط 5، بيروت، دار الملايين 1973، ص. 84

2- علي عباس علوان، تطور الشعر العربي الحديث في العراق، اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج، بغداد وزارة الإعلام ص. 100

العربي الحديث بهذه اليقظة السياسية والفكرية، وهكذا ارتبط هذا الوعي الجديد بالثورة على القديم "**القصيدة الاحيائية**" وعلى الجديد السائد " **القصيدة الرومانسية** ".

وفي ضوء ما سلف، ومن خلال استقراء للسوق الإبداعي العربي، يتضح لي، أن هناك مجموعة من الرؤى تعاقبت في الساحة الشعرية العربية المعاصرة، وقد وجدت هذه الرؤى تربة خصبة للنمو والتطور، سواء في المجال السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي كانت تمدها بالغذاء والدعم الفكري في إطار التطور العام للمجتمع وبذلك تشكلت الخلفية السياسية والاجتماعية والفكرية والفنية للمخيلة الشعرية الحديثة بكل أشكالها المتنوعة، ومن أبرز هذه الرؤى ما يلي:

أولا: الرؤية الإحيائية الجديدة، التي تنظر إلى الشعر الحر من حيث كونه حركة تعبيرية عمودية مطورة تنسجم مع أصول الشعر العربي وجمالياته القديمة، ولذلك وجدت هذه الرؤية أطروحتها في شعر التفعيلة المقفى، باعتباره شكلا يحقق قدرا من الانسجام بين سلطة التعبير الصوري القدي، وسلطة التعبير الصوري البنائي الجديد، وهذا الانسجام الفني كان من بين العوامل الفاعلة في نشوء ذلك الائتلاف الثقافي والشعري عند معظم رواد الشعر الحر كما تجسده الدالة البيانية المرفقة بهذا البحث ومن خلا ل هذا التوافق والائتلاف تعايشت الحركات الشعرية المعاصرة.

ثانيا: وهناك الرؤية الحداثية الجديدة بكل أشكالها الرؤيوية المتعددة، والتي تنطلق من تصور فكري آخر، يعيد إرساء البناء الشعري ثم يحدد طبيعة القصيدة ووظيفتها، في ضوء رؤية مغايرة وبنية فنية شمولية، تتجاوز السائد والمألوف والعرف، ولكن هذه الرؤية انشطرت علي مستوى الممارسة الإبداعية إلى شطرين، أحدهما يركز على البنية الفردية الذاتية، وهي بنية شعرية جزئية محورها الفرد، وصارت لها أدواتها التعبيرية والغنائية على مستويات متغايرة ومتكاملة، أما الشطر الآخر فكان التركيز على ربط القصيدة بالوعي الواقعي الاشتراكي الحداثي والخروج بها من إطار المحلية إلى العالمية، من خلال الاستفادة

من طاقات الأصوات اللغوية والأسطورية والتاريخية وقد صاحب تعميق هذه المعرفة الشعرية الجديدة، اتساع دائرة الانفتاح على الثقافات القديمة والحديثة، وقد ترك ذلك أثرا بارزا في المخيلة الشعرية العربية المعاصرة.

لقد كانت العودة إلى الرموز والأساطير، والموروث السردي، والآداب العالمية، أسلوبا تعبيريا للانفلات من الغنائية والتعبير المباشر في صيغتها التقليدية، وتجريد القصيدة من عناصر الشخصية، والبحث عن المعادل الموضوعي للشعور وللفكر، الذي يعتبر من أهم الأفكار النقدية، **لتوماس إليوت** (T.S Eliot) وأكثرها تأثيرا في الوسط النقدي الحديث، جسدها قصيدته المشهورة **"الأرض الخراب"** القائمة على التضمين والاقتباس من الأشعار والإشارات والرموز الأسطورية والتاريخية والثقافية[1] وبهذه الرؤية الشعرية المنفتحة تشكلت البنية الجماعية الغنائية والدرامية على حد سواء في المخيلة الفنية لرواد القصيدة الحرة.

ومن خلال الدالة البيانية المرفقة في آخر هذا الحديث، تتضح صورة التعايش بين مختلف لتيارات على المستوى الفكري في إطار الأطروحة الواقعية الاشتراكية، أو على المستوى الفني —في إطار أطروحة التفعيلة داخل جبهة الائتلاف، التي تكونت في مرحلة الخمسينيات التي كانت تضم بقايا التفكير الإحيائي والرومانسي، إلى جانب التفكير الشعري الحداثي الجديد بتياراته , وهو الانطباع الذي يؤكد ، بأن التغيير في القصيدة، ، في ظل هذا التحالف الإيديولجي والفني طال الواجهة الفنية أكثر، فتضخمت القصيدة بسرعة شكلا بالرموز والأساطير، وبقي نظامها الشعري ينمو ببطء، إلى أن وقع الاختلال الفني، فانفجر التحالف الفني وتمزق الشكل الحر، ودخل الشعر العربي المعاصر في مرحلة جديدة من التجريب الحداثي والمغامرة الفنية.

1- أنس داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، القاهرة مكتبة عين شمس، ص 190. وينظر كذلك: عبد الرضا علي، الأسطورة في شعر السياب، ط2، بيروت، دار الرائد العربي 1984، ص 125.

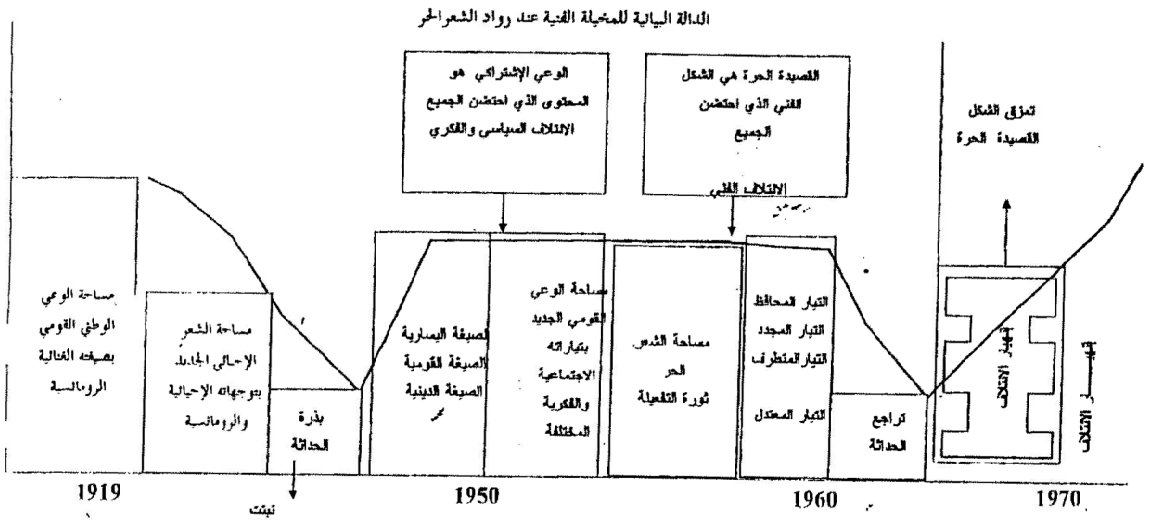
الدالة البيانية للمخيلة الفنية عند رواد الشعر الحر
الوعي الإشتراكي هو المحتوى الذي احتضن الجميع الائتلاف السياسي والفكري
القصيدة الحرة هي الشكل الفني الذي احتضن الجميع
الائتلاف الفني
تمزق الشكل القصيدة الحرة
مساحة الوعي الوطني القومي بصيغه الخيالية الرومانسية
مساحة الشعر الإحيائي الجديد بتوجهاته الإحيائية والرومانسية
بذرة الحداثة
الصيغة اليسارية الصيغة القومية الصيغة الدينية
مساحة الوعي القومي الجديد بتياراته الاجتماعية والفكرية المختلفة
مساحة الشعر الحر ثورة التفعيلة
التيار المحافظ التيار المجدد التيار المتطرف
التيار المعتدل
تراجع الحداثة
انهيار الائتلاف
انهيار الائتلاف
1919
1950
1960
1970
نبتت
في المرحلة السابقة ، ولكنها ظلت تنمو وتتغذى من ثقافة الجديد ، ومن الصيغ الفكرية والسياسية الجديدة ، إلى أن أثمرت في صورة إئتلاف
تراجع الوعي الواقعي الاشتراكي بكل توجهاته أدى إلى إنهيار التحالف